

من كتاب همس الصحراء

قصة معبد

إذا قلت المحال رفعت صوتي

وإن قلت اليقين أطلت همسي

أبر العلاء المعري

من أيام شهر يوليو وكأنا حرارة الطقس قد مدت في ساعات هذا اليوم الصائف الحار فأصبح كأنه الأبد لا يشعر بانتهاء . نخرجت إلى تلك الصحراء القريبة التي أحس فيها وحدها الحرية ، والتي أعود منها دائماً ، وقد فهمت هذا الكلام الذي أقرؤه في الكتب حول معاني الحرية ولا أحسه في حياة تبدأ أيامها قيوداً ، وتنتهي قيوداً . وما كدت أسير في الصحراء وأستنشق هواءها الجاف حتى بعث في نفسي على دفئه نشاطاً لم يكن لأي شيء سواه أن يبعثه ، وإذا هذا النشاط يغريني بالسير ، وإذا أنا مطمئنة إلى هذا الإبعاد في الصحراء ، وكأني واثقة أنني مهما قضيت فيها من الزمن فسأعود قبل أن ينتهي هذا اليوم الطويل . ولا يعرف سحر الصحراء إلا من سار فيها راغباً في هذا السير الذي لا يوصل إلى غاية ، ولا يقصد به قطع الطريق . فلعل أجمل ما في الصحراء هو هذا الشعور المطمئن بالضيايع . إنه شعور عجيب يجمع بين تقيضين ، وليس أبلغ في التأثير في النفس من اجتماع المتناقضين .

وعن بعد لاح لي بناء لم أكن رأيت من قبل . فقلت في نفسي : لعل اتجهت اتجاهاً جديداً . ولم أسترسل في هذا التفكير ، فقد كان شيء غامض يسرع بخطاى نحو هذا البناء ، فأسرعت حتى كدت أعدو عدواً ، والبناء تظهر لي معالمه وتقترب ، فأعجب لهذه القبة الشاذجة من بناها في هذه الصحراء ، ترى ومن يعمرها ؟ أم أثر قديم أم أن أحدا يسكنها سأحدثه ويحدثني فأرى صاحب هذه العزيمة الجبارة الذي بناها أو صاحب هذا الحظ السعيد الذي يعيش فيها ؟

قصة معبد

ترى لم أفرد نفسه هنا وسط هذا الفضاء الواسع؟ أعابد هجر الحياة أم إنه سجين أفردوه قسراً وانتقاماً؟ لا ولكن القبة كبيرة فخمة، ولا يمكن أن تكون لقرء . إنه معبد قديم فيما يلو ح . وعدوت وعدوت ، وإذا بناء نغم ليس في المدينة ما يماثله أو يدانيه . إنه يذكرني بالمعابد التاريخية القديمة ؛ فإن شيئاً في حجارتة ونغامتة يوحي بالخلود والأبد . ولكن أمره عجيب فهو جديد ولا شك ، ولكنه مهمل إهمالاً فاحشاً ، فلم يبق من جَدته فيما يظهر إلا معالم لولا وضوحها لكانت قلتها كافية لظفائها . وكنت كلما اقتربت أحسست وحشة ورهبة كانتا كفتيلتين برجعي أو إثباتي حيث أنا لولا حب الاستطلاع . وإذا أنا قد كدت أصل إلى أسوار المعبد الخارجية فأرى شيخاً لفتني إليه مظهره . فقد كان يجلس على الأرض ، وفي يده عود قصير يداعب به الرمال في هدوء وتأمل طويلين حاملين . وما كاد يحس خطواتي حتى رفع جفنيا في تناقل . ولم يكد نظره يرتفع إلى أكثر من ساق حتى عاد إلى رماله يداعبها كأن نسمة من نسامات الصحراء مرّت على وجهه الأسمر الدقيق . فوقفت هنيهة تأمل هذا الشيخ في ملابسه البيضاء الناصعة ، ولحيته الفضية التي توحى بالهيبة والوقار ، ووجهه الوسيم الشاب الذي لا تكاد تلمح فيه أثراً للإسيراً للتجاعيد . وكان لهذه اللحية البيضاء على الوجه الأسمر الشاب لسحر جميل . وتأملت أنفه الدقيق وجهته العريضة ، وسألت نفسي : ماذا تكون أخلاق رجل هذه ملامحه ؟ ثم ابتسمت في نفسي من مثل هذه الأفكار تلوح لي في هذا الموقف . وأفقت ، وإذا انتظاري قد طال ، فبدأت أحس شيئاً من الارتباك ، فلولا هذه الخطوط القصيرة التي كان يرسمها الشيخ في بطاء لم يكن من الصعب أن أظن أن هذا الذي أمامي تمثال دقيق الصنعة ، قد ألقى في الصحراء إلقاء . ترى ماذا يمكن أن أقول له . وإذا صوت من بعيد ، فنظرت فإذا طائفة من الشبان تدخل هذا المعبد الفخم ، وتختفي وراء الأسوار الحديدية التي أحاطت به . وقبل أن أفكر في شيء كنت أعدهم نحوهم لأسألم عن أمر هذا المعبد ، ولكنهم تواروا داخله قبل أن أقطع نصف المسافة التي تفصل هذا الشيخ عن الأسوار . فعدت مرة أخرى ، ولما لم أجد هذا الشيخ قد تحرك فقد صبري فقلت : « يا سيدى » وكأما كان صوتي يخرج من جوف الأرض لا من حاتي . وما كدت أنطق بهذه الكلمة حتى رفع إلى بصره في تناقل ، فإذا عينان حادتان تنفذان إلى نفسي ، فأحس كأنها عارية

تكدأ تتلاشى من خجلها فى هذا الفضاء ذرات متناثرة، وإذا صوت وقور بقى يقول: « وماذا أنى بك يا بنتى إلى هنا؟ ». قلت: سيدى وما هنا هذه؟ ولماذا تنظر إلى هكذا؟ وأحس الرجل أنى خائفة أحاول إخفاء خوفى فى التلطف على معرفة ما لم أكن أعرف. قال: « أما هنا يا بنتى فهذا المعبد. وأما نظرتى فاغفريها لى، إنى لم أرفع البصر عن الرمال منذ أعوام، ولم أر إلا لونها الأصفر الأبيض حتى كدت لا أميز الألوان، قلت: وكيف تعيش؟ قال: « إنى أعرف بعض سدنة هذا المعبد فهم يقومون بخدمتى، ولكنى لا أرفع بصرى إليهم لأنى لا أريد أن أراهم. ولولا أنى لا أملك البعد عن هذا المعبد ما أطقت العيش هنا فى جوار هؤلاء. عودى يا بنتى من حيث أتيت فإن فى صوتك إخلاصاً، وفى ملاحك سداجة يقتلها هذا الجو الخائق ». قلت: « ولكن ماذا يضطرك إلى هذا ياسيدى، وأمامك المدينة واسعة ولن تعدم من الأصدقاء فيها من ييسر لك عملاً تعيش منه قرير العين فلا تحتاج إلى هؤلاء الذين لا تطيق أن ترفع فى وجوههم بصرك؟ ». فابتسم الشيخ ابتسامة عابرة من جهلى وقال: « إنى لا أطيق الإقامة فى المدن والبيوت. عودى يا بنتى. ألم أقل لك إن فىك إخلاصاً وسداجة؟ ».

وعاد يداعب رماله فى حركة إن تكن أسرع من حركاته الأولى فإنها لا تزال بطيئة حاملة. وخفت الأيجيبنى فقلت: سيدى ساعود فى الحال، ولكن لى رجاء. قال ولم يرفع بصره: « حتى أنت! » قلت: وماذا؟ قال: لا تعملين إلا بشمن. قلت: رجائى أن تقص على قصة هذا المعبد، وأؤكد لك أنى لن أسألك شيئاً، ولن أستفسرك عن شىء، قص على من أمره ما شئت، واحذف من خبره ما ترى، ولكن لا تدعى أذهب وفى النفس ظمأ إلى معرفة أمر هذا المعبد فأعود إليه وأنت لا تريد أن أعود. قال: كلا يا بنتى لىتك تعودين، وقد تبدلت الحال؛ بل لىتك جئت إلى هنا منذ أعوام إذن لتلقيتك بالترحاب، ولدخلت المعبد فلا تبرحين. ولكن... ثم رفع بصره إلى السماء، وتهد تنهيدة مكتومة حائرة ولم يقل أكثر من « يارب » ثم صمت. وشع نداؤه حاراً فى الصحراء وفى جوار المعبد إحساساً بحشية الله لا يمكن أن يوصف. إنه غيبة عن هذا العالم يتصل الروح فيها بشىء غامض قوى فتغمر النفس سعادة ويسرى فيها أمن. وأفقت على أصوات منكرة تنبعث من هذا المعبد ففرعت

وهمت بأن أعدو هاربة ، وقد خيل إلى أن وحوشاً ستنتقل في أثرى ، لولا أن الشيخ قال لا تفرعى يا بنتى إنهم يرتلون آياتهم في الصلاة ، اجلسى على هذه الصخرة فسأقص عليك قصتهم ، وإنها لحقيرة مؤلمة ، ولكنهم لا يقدرُونَ إلا على هذا . إستريحى يا بنتى فلقد سرت طويلاً واهترت أعصابك هزات عنيفة لم تتعوديها ، إني قد علانى المشيب منها وأنا فى شرح الشباب . قلت فى نفسى إن أمره لأخطر مما قد دار فى خدى . هذا الصوت النقى الوقور ، وهذه اللحية البيضاء وهذا الوجه الشاب ، ثم هذه الجلسة التى لا يفتق منها ويكاد يقضى حياته فيها . إن أمره لأعجب من أمر المعبد . قلت : سيدى أتحدثنى حديثك أنت ولتترك أمر المعبد ومن فيه ، فقد تضاءل شأنه بعد ما سمعت من أصوات سدنته المنكرة ؟ قال : إن قصتنا لواحدة .

منذ أعوام طويلة جاء إلى هذه الصحراء نفر من شبان المدينة عرفوا الحياة يقيناً ، فزادهم يقينهم بها إيماناً ، وتطلعوا إلى خير ما يتطلع إليه إنسان ، فزادهم تطلعهم حماسة وإخلاصاً ، وأجمعوا أن خير ما ينفقون فيه أعمارهم هو التفرغ لعبادة من خلقهم ستعينين على التقرب إليه لا بالصلاة والتسبيح حسب ، ولكن بالسعى أيضاً وراء المعرفة ، والبحث عن الحقيقة . فى السعى وراء المعرفة تسبيح ، وفى البحث عن الحقيقة صلاة . وقالوا : إننا لنفرغ لعبادتنا يجب أن نبعد عن المدينة وما فيها من هو وزينج ومطامع وأغراض ، ونقيم هنا فى هذه الصحراء لانهزول المدينة إلا مضطرين أو ساعين . نحتكُ بالناس لنعرف طبائعهم ، ونعامل الناس بالقدر اليسير الذى نحتاج إليه لمعاشنا ، أو بالقدر الذى يمليه علينا جنبنا لمعرفة الإنسان هذا المجهول الذى أتعب العلماء والباحثين مند خلقوا ، وفيما عدا ذلك فمقامنا فى هذه الصحراء يعين بعضنا بعضاً ، على ما يدرس ويقوى صوت أحدنا أصوات إخوانه فيما ترتفع به من تسبيح بحمد الله . وقليلاً قليلاً قويت جماعتهم ، وبهرت فكرتهم بعض أهل المدينة ، فمنهم من انضم إليهم بروحه ونفسه ، ومنهم من وجد فى فكرتهم مجالاً لخلود الذكر ، فقال لهم نبئى لكم معبداً . وراق لهم هذا العرض وتقبلوا فضل هؤلاء المخلصين وتفاءلوا به . وقالوا : هكذا يمن الله علينا ليشجعنا على السير فيما بدأناه . وتنافس الناس فى المدينة لإقامة هذا المعبد لهؤلاء المؤمنين ، منهم من دفع من ماله لا يبتغى إلا المشاركة بما يملك فى تحقيق فكرتهم الجميلة ، ومنهم من رأى فى ذلك فرصة للمباهاة

قصة معبد

والظهور . والإإنسان قد فطر على التنافس والتفاخر . وشيثا فشيثا شيد هذا المعبد الضخم . لو رأيتَه يا بنتى يوم كمل بناؤه ! لقد كان آية من آيات الجمال ، كان عليه ضوء من السماء كأنما السحب قد انقشعت من فوقه وحده فأنارته وقد حجبت النور عن سائر ماحوله . كان لؤلؤة مضيئة لامعة فى رمال هذه الصحراء الباهتة . ودخل الشبان معبدهم ، وعكف كل منهم على ما كان يعكف عليه من قبل . ولست أذكر من أمرى شيئا إلا أنى كنت أهيم فى هذه الصحراء ، وفى ذا كرتى خيالات مفرقة ، وصور قديمة عن معابد سكنتها حيناً وخرجت منها لا أدرى كيف ولا متى . فرأونى هائماً فى الصحراء فأدخلونى معهم وأكرمونى وأحبونى ، فأحببتهم جميعاً حتى إنى لم أطق أن أقيم فى غرفة بعينها من غرف المعبد ، ورجوتهم ألا يكون لى مكان معين فيه ، وأن يأذنوا لى بزيارة من أشاء منهم . فحياتى التى جبلت عليها تآبى على الاستقرار فى المعابد . وفرحوا لهذا وازدادوا بى تعلقاً ، وفى خدمتى تقانياً ، وعاشتهم زمناً .

لو سمعت يابنتى أناشيدهم التى كانوا يسبحون بها ربهم لكل مطلع شمس ومغربها ! كانت أصواتهم أجمل نعم يمكن أن يسمعه الإنسان . أصوات آدمية بلغت من الصفاء أقصى مبلغ ، ومن الحلاوة مالا يمكن أن تصل إليه آلة مهما تكن . وكان ترتيلهم يتصاعد من هذه القبة اللازوردية فى طريقه إلى السماء ، فيحس سامعه ومنشده أنهما قد رفا من فوق هذا الأرض وقد أصبحا شيئاً آخر غير أهلها ، شيئاً قريباً من عالم الملائكة بروائه وجلاله . حتى إذا خرج الصوت من القبة وتجاوبت أصداؤه فى قبة السماء ، ثم أخذت أنغامه تغيب فاسحة لغيرها ملى الصوت حناناً ، وفتح بمحلاوته آفاقاً وآفاقاً ، من الجمال والجلال والروعة ، وإذا الأطييار تدنو زرافات من أطراف الصحراء تدخل المعبد وتخرج منه محلقة مع الصوت فى آفاق السماء مرددة ألحان التسبيح خحلة أول الأمر من أصواتها ثم متشجعة بعد حين ، مغمية أصواتها الخاطفة القصيرة فى هذه الأنغام المليئة الطويلة . إن الأصوات الوحشة التى سمعتها الآن ، والتى أفرزعتك هذا الفزع الذى أشفقت عليك منه ، لا يزال أصحابها يريدون من سامعها أن يكشف لهم عن مثل هذه الآفاق ، ونسوا أو تناسوا أنهم لا يتطلعون إليها ولا يحسون من الحنين إليها شيئاً ، بل إن صورها أصبحت لا تدور بخيالهم الذى ملى رياءً وريفاً وما رُب تفسد عليهم الحياة نفسها .

ومكثت معهم زمناً، فاصطفيت أحدهم وأحبته أكثر من إخوانه . لقد كان أدقهم تصوراً لفكرة هذا المعبد، وأشدهم تحمساً لها ، وإن حنينه إلى الوصول إلى الكمال في أمر هذا المعبد كان أقوى من حنين إخوانه ، لسعة خياله واتقاد حسه ، وإمكان روحه أن يخلق فوق ما تشغل به النفس عادة من أمر هذه الحياة . وكان كثير التأمل شامل النظرة ، فوسع صدره لما لم تتسع له صدور الآخرين وقوى جلده وصبره على ما لم يقو عليه جلد الآخرين وصبرهم . وكنت أراه من حين إلى حين ينتحي مكاناً في المعبد يطيل فيه التفكير فأعوانه ، وإذا هو يفضي إلى بدخيلة نفسه في سذاجة الرجل العظيم ، ودقة القلب الكبير . وكان إخوانه يحسون هذا الجو الذي شع عليهم في المعبد ، وهو مشبع بالحبّة والخلوص للتعبد ، فلم يغاروا من حيي له وإنما فرحوا به ، ولم يشغلوا أنفسهم بأمر إقصائه عنى ، أو بحسبان ما يمكن أن يطرأ على علاقتنا من تغيير بفعل الزمن أو الظروف أو الناس ، وإنما شاركوني في حيي له ، فأحبهم هو وفسح لهم الطريق إلى قلبي . وكثيراً ما حدثني عنهم يحاول أن يكشف لي ما ظن أني لم أكن أعرف من محاسنهم . وفي يوم أرادوا أن يكون لهم رئيس ينظم أمر جماعتهم ، وأعمالهم وبحوثهم ، فلم يجدوا خيراً مما اصطفت فبايعوه فرحين به . وارتفعت أصواتهم بالدعاء والشكر على ما وفقوا له في أمرهم فكانت في أحلى نعم وأرقه وأصفاه . ونظرت حولى في أرجاء المعبد فتمتعت بعناى بحمال الفن وروائه : فهذه تماثيل صنعوها وقد وضعوا كلامها على قاعدة تظهر أدق ما في فهم من آيات . ودخلت أشعة الشمس من قبة المعبد الزرقاء الصافية ، من تلك الفتحة الصغيرة في القمة ، فتلاعبت بهذه الزرقة وألقت على التماثيل ألواناً وأشعة ، فزادت فتنها وكمل جاهلها . وهذا أحدهم ما كف في ركنه يقرأ ويكتب ، وهذا آخر يفكر ويتأمل ويطيل التفكير ويتعمق التأمل ، وهذا ثالث ينحت ويصور ، وتلك جماعة تتناقش وتتحدث ، وأخرى تصلى وتتعبد

وكانوا قد أفردوا جزءاً من المعبد يستقبلون فيه شبان المدينة الجدد الذين يريدون أن يتعرفوا أمرهم ، فمنهم من كان يقرأ معهم ويتعبد فتحلوه الإقامة ويمكث معهم وقد عاهدتهم وعاهد نفسه أن يظل منهم مدى الحياة . ومنهم من كان يرى في حياة العزلة تلك مشقة لا قبل لمثله بها فيرجع إلى المدينة شاكراً حامداً وفي نفسه منهم أطيّب ذكرى وأخلص حب . وسدنة المعبد يرحبون به

إذا قرر المكوث معهم ويودعونه آسفين محزونين إذا قرر الرجوع إلى المدينة . وهو إذا مكث في المعبد أصبح من سدنته يقوم على خدمته كهؤلاء الذين سبقوه يعمل في إخلاص ونشاط كل ما من شأنه أن يجعل المعبد ويسر الحياة الطيبة لمن فيه ، يتعاون معهم في ذلك حسب سنه ومواهبه . حتى إذا نما هذا الوافد الجديد واكمل بدأ يضيف هو أيضاً من جهده إلى جهودهم ما يحقق فكرة عبادة الخالق صلاة وعاماً .

وكان منظر هؤلاء الوافدين الجدد طريفاً بديعاً ؛ فقد كانوا يتحسسون جدران المعبد ، كما يتحسس الريني الجلف قطعة من الحرير ، كأنما في اللس وحده لذة فائقة . وكانوا يتطلعون إلى كبارهم ، كما يتطلع الطفل إلى أبيه في إعجاب وحب ورغبة شديدة عمياء في أن يقلده ، فهم يسيرون وراءهم يسألون في إلحاح عن كل ما يخطر لهم ، والآباء يحدبون عليهم ويفتحون ما أغلق دونهم وينيرون ما أظلم عليهم . فإذا أتى من الوفود الجديدة من يسأل سؤالاً كانوا هم سألوه من قبل ضحكوا منه ضحكة لذيذة ، كأنما يرون فيه أنفسهم من جديد .

وأحب صاحبي هؤلاء الجدد ورأى فيهم حجراً أساسياً في بناء المعبد . إن حياة الانسان لقصيرة ، وفكرة المبدأية ازلية . ترى من يقوم بها إذا أقعدت السن من بدءوا غير هؤلاء الشبان . ومن خير ما نتخدم به فكرة المعبد أن تكون الخطوة الجديدة فيه خيراً من السابقة ، وأن يكون الذين سيلون الأمر فيه خيراً ممن يلونه الآن . وتحمس صاحبي تحمسه لكل فكرة صائبة تلوح له ، وقال لهؤلاء الجدد : إننا نريد أن نعدكم لتكونوا خيراً منا . وملاً الغرور الطموح المحب نفوسهم المتطلعة الشابة فقالوا : وإنا نلرجو أن نكون كذلك . قال : إن معبدنا هذا واحد من آلاف المعابد المقامة في صحارى العالم الشاسع الواسع . ومن الخير لهذا المعبد أن يعرف القائمون بأمره ، لا ما يدور في معبدهم فحسب كما يعرفون الآن ، ولكن ما يدور أيضاً في تلك المعابد الأخرى حتى يبقوا على أحسن الوسائل التي تتحقق بها فكرة المعبد العظيمة . إن من المعابد الأخرى القديم ، وإن منها ما قد مرن في التجارب قروناً ، فليذهب كل منكم إلى معبد من تلك المعابد وسيرحب به أهله دون شك ، فليمكث فيه زمناً ، ثم ليعد إلينا وقد عرف ما لم يكن له أن يعرف لو أقام هنا طوال عمره مهما أخلص . لقد زرت هذه المعابد مراراً وأقت حيناً في غيرها ، ولكن الزمن يسير ، والسكال لا يدرك في جيل ،

فلتذهبوا إليها ولتقيموا فيها ، ولتحسنوا الدرس والالانة في الدرس ، لعل فيكم الخير لمستقبل هذا المعبد المقدس . وتحمس الشباب الطموح لفكرة الرحلة في ذاتها ، وأكبر أستاذه أكثر مما كان يكبره بعد أن ظن أنه قد بلغ النهاية في إجلاله وإكباره . وودع أهل المعبد إخوانهم الصغار الراحليز ، وفي نفوسهم حسرة على فراقهم ، وفي تفكيرهم رضا عما سيكون منهم حين يعودون .

ومنذ ذلك اليوم الذي تولى فيه صاحبي أمر المعبد وأخذ يعنى بمحاضره ومستقبله أحسست في نفسى أمناً ورضاء ، وأطمأنت إلى أن الحياة في هذا المعبد ستسير كل يوم نحو غايتها ، وستبعد عنها الغاية كلما بدت دانية فينعم سدنته بامتع لذات الحياة ، لذات السعى إلى غاية لا تدرك ، فلا يمكن السأم أن يتطرق إلى حياتهم ولا يمكن كسل النجاح أن يميت نفوسهم إذا ما وصلت . إنهم سيسعون أبداً وستبقى حياتهم في هذا السعى وهم راضون متحمسون ، بل وهم محتقرون كل من يريد أن يريحهم أو يفرغهم أن يستبدلوا لغايتهم غاية أدنى وصولاً وأيسر سعياً . وبينما كنت أحس الظمأينة كلما فكرت فيهم كنت أحس القلق إذا ما فكرت في نفسى : ما مقامى هنا بل ما مجيئى ومتى ذهابى . إلى يابنتى لا أعرف شيئاً عن نفسى ولا أدرى من حياتى إلا خيالات صور مشتتة غامضة . ولو تركت إلى نفسى حيناً لاتسع الوقت لأن أعرف من شأنها شيئاً ، ولكنى موكل دائماً بأمر ، مشغول بفكر . وأحسست يوماً وأنا أجول حول المعبد برغبة في أن أمعن في هذه الصحراء . لقد كانت الصحراء أمامى كل يوم ، فما أحسست لجمالها إغراء ولا لسحرها فتنة . ولكنى في ذلك اليوم أحسست إغراءها وفتنتها ، واستطعت بعد مشقة أن أقاوم إحساسى فلا أتبه في مجاهيلها . فلما عدت إلى صبحى إذا بهم قلقون مضطربون يتحدثون في أمر جاءهم من المدينة ، فهذا حاكمها أرسل إلى رئيسهم يريده أن يشخص إليه . وعاد منهم من المدينة من عاد ، فقد كانوا يخرجون إليها إما للدرس وإما للمعاش ، فقالوا إن أهل المدينة في أشد حالات الاضطراب ؛ فقد قام عليها حاكم متكبر جبار يريد أن يخضع فيها كل شئ لآسره . فلما قاوموه تعسف وقتل فأذعنوا مرغمين ، وفي صدورهم براكين من الغيظ ، وفي نفوسهم فيض من ألم الذلة وذل المسكنة . وظل الحاكم عامماً أو نحو ذلك لا يستطيع أحد إلا موافقته على ما يفعل أو يقول . وترامت إليه أخبار المعبد وما ينعم به أهله من حرية وكرامة ، ففز عليه أن يكون حر أو كريم

لا يخضعه لسلطانه ، فأرسل إلى رئيس المعبد ليسير إليه . ولا يعرف السدنة الآن ماذا سيكون من أمرهم مع هذا الطاغية ، واضطربت نفوسهم أشد اضطراب . ولأول مرة أحسست أنى غريب عنهم ، وأنى لا أحس ما يحسون ، ولا أفكر فيما يفكرون ، ترى ماذا جعلهم يضطربون ؟ ولأول مرة أيضاً أحسست الندم لأنى قاومت إغراء الصحراء وفتنتها . وتطلعت إلى صاحبي فإذا هو الوحيد الذى لم يضطرب ، وإذا هو يتحدث إليهم بما أصبحت أفهمه وإن غابت عني بعض معانيه . إنه أخذ يعيد الطمأنينة إلى قلوبهم ، وإذا هم يفيتقون من حديثه أقوىاء متحمسين . وتجاوبت الحماسة فى نفوسهم فقويت وازدادت قليلاً قليلاً حتى ملأت قلوبهم . إنهم لن يفرطوا فى رئيسهم ، ولن يذهب إلى الحاكم لأنه دعاه . إن حاكم المدينة لمرطرق بابهم ما أجابوه . وما لهم وما يتناحرون من أجله هناك ! إنهم زاهدون فى السلطان ، راغبون عن المال ، حسبهم من عيشهم هذه الحياة التى يحيونها منعمة بلذة القرب من الله سبحانه وتعالى يتعبدون ويدرسون فيحسون حجب الكون تتكشف لهم حجاباً حجاباً ، وفى كل كشف لذة تطغى وسعادة تغمر .

ولكن الحاكم لم يصبر على هذا الثبوت له ، وإذا جنده يقتحمون المعبد ويخرجون الرئيس بالقوة . ولا تسألنى يا بنتى عن الهلع الذى اعترى تلك الجماعة المؤتلفة المتحابة . وكانت غضبتهم غضبة قوية دوت بها الصحراء كلها . إنهم لن يرتضوا غير رئيسهم ، ولا بد أن يرد إليهم . وسعى إليه من سعى فى عزلته وجفاه من جفاه . وهدأ الزمن من ثورة النفوس ، وإذا الشدة كماداتها تكشف عن حقيقة النفس ، وسرعان ما كشفت عن تلك النفوس التى سما بها الجو حولها ، فغارت فيه وهى ليست منه . فلما نضبت الكأس ظهرت رواسبها التى كانت تعوم فيها . إن هؤلاء القلة الذين كانوا النواة الأولى لم يحسنوا اختيار إخوانهم ، فضموا إليهم بعض من فقه فكرة المعبد وبعض من لم يفقهها أصلاً . بل لقد ضموا بعض من بهره بناء المعبد ، ولكنه عاش غريباً فيه يسائر أهله وهو لا يحس أنه منهم . كل ما فى الأمر أنه وجد فى المعبد أمناً ودعة لم يتوافر له خارجه ، وظن أن سيكون لهذا المعبد شأن دنيوى سريع ، فإذا عليه لو شارك فى هذا الشأن منذ الآن فيكسب بمر الزمن . لقد كانوا أعرف بطبيعة الحياة والانسان من هؤلاء المثاليين المؤمنين الأولين .

وكان أمر الوافدين الجدد مضطرباً بين هؤلاء وهؤلاء ، منهم من آمن مع الأولين فاقنع بوجهة نظرهم ، ومنهم من عاد بعد قليل فأمن بوجهة نظر هؤلاء العمليين ، ونسوا ثورتهم العظيمة ؛ فالزمن كفيل بأن ينسى أعظم الأشياء وأجلها شأناً في الحياة . أما سدة المعبد فلقد غفلوا أو تغافلوا عما بينهم من اختلاف ، وكانت أصوات العمليين تضيع في أصوات المخلصين وعمقتها وهم يرتلون من قلوبهم ، فظلت أنغامهم تخرج حارة قوية مع أن عدداً ليس بالقليل منهم كانت ترانيله لا تتجاوز الشفاه خجلاً وخوفاً .

ولكن المحنة أتاحت لهؤلاء العمليين أن يتكلموا وأن تلعو أصواتهم الخائفة ، ومر الزمن فإذا أصواتهم تلعو في الترتيل ، وإذا أصواتهم تعكر صفو هذا اللحن الصافي الرقراق . وقال قائلهم إنه كان يجب على رئيسنا أن يجيب الحاكم فلا يعزله ولا يعذبه . وقال آخر إن للحاكم سلطاناً على كل شيء وسلطته مهما بالغ فيها يجب ألا تعارض ، وإلا ضاعت هيبة السلطان في كل زمان ومكان . ولكن ظل من المؤمنين الأولين من يقول إنه ليس للحاكم أن يتدخل في أمرنا ، إننا لا نتعرض له ولا لسلطانه ، فنحن قوم جعلنا بيننا وبين المال والسلطان آمداً واسعة . والمال الذي يأتينا من المدينة إن هو إلا قرابين أهلنا إلينا لا يدفعه الحاكم من ماله ولا يتكلف في سبيل إيصاله إلينا شيئاً . ولكن صوت هؤلاء المؤمنين وإن يكن كله إخلاصاً فقد كان فيه غير قليل من فتور خيبة الأمل والاشمئزاز من حولهم فلم ، يكونوا ينتظرون إلا أن ترى الجماعة في مثل هذا الموقف رأياً واحداً تراه أول الأمر ولا تحيد عنه إلى النهاية .

وغضب سدة المعبد المخلصين وتلاميذهم ما شاءوا ، ولكنهم عرفوا آخر الأمر ما حاولوا نسيانه ، وهو أن الحاكم الظالم لا تقاومه إلا جماعة متماسكة كل التماسك . أما هم فقد تفككوا وظهرت لهم العناصر الغريبة عنهم التي تعيش بينهم ، وعادوا سيرتهم الأولى ، وقد فترت حماسهم ونظر بعضهم إلى بعض بعين الريبة والشك ، كل منهم يظن في صاحبه ما لا يظهر . لقد كانت التجربة قاسية . ثم أرسل الحاكم أوامره فحاولوا أول الأمر مقاومتها ، ثم أذعنوا وولوا عليهم من ارتضاه الحاكم حتى لا تنفذ في المعبد إلا أوامره . لقد نقب هذا الرئيس الجديد أول ثغرة في حصن المعبد المقدس ؛ فقد جعل للحاكم فيه أمراً لم ينته بل ازداد على مر الأيام .

ومنذ ذلك يا بنتي اتصل أمر المعبد بالحكم القائم اتصالاً أفسد عليه كل أموره . فالذين كانوا من أبنائه يقضون النهار في البحث والتسييح لله ، والليل في التهجد والتفكير والتأمل ، أصبحوا يقضون اليوم في المدينة باحثين عن الأسباب التي توصلهم إلى رضا السلطان وعطفه ، وليتهم في التفكير في وسائل هذا التقرب وكيفيته . فإذا صححوا خيالهم وألم بهم الإمامة ما ، لم يفكروا في جنات عدن ، وإنما تخيلوا ما يمكن أن يصلوا إليه من سلطان ، وما يمكن أن ينعموا به من مال . وأصبحت صلاة المؤمنين المخلصين منهم تجمد على جدران المعبد الخرساء الباردة قبل أن تنزل في طريقها إلى السماء . وبذلك أصبحت الحياة في المعبد جحماً لا يطاق . وأمر الرئيس الجديد ، ونهى وأطاع بعضهم ، وتحاشاه الآخرون ، فقرّب وأبعد ، وأفسد ما شاء له الإفساد .

ريشاء الله ، جلت حكمته أن تعارض ، أن يعود في تلك الآونة شبان المعبد المسافرون في صحارى العالم ، وفي قلوبهم حماسة الشباب المؤمن ، وفي عقولهم علم وأمل واسع عريض ، فإذا المعبد حوله أسوار لم تكن أيام كانوا فيه . فنفرت نفوسهم من تلك الفضبان الحديدية ، وما رمز إليه من معنى السيطرة والسلطان ، بل من معنى القيد والذل . ولكنهم جاوزوا الأسوار ، وإذا وجوه إخوانهم وكبارهم توحى بنفرة أشد وخوف أقوى . إنهم لم يرحب بهم أحد ولم يهش لمقدمهم إنسان ، وتقدموا للعمل فلم يشجعهم أحد ، بل أحسوا رغبة خفية في التخلص منهم . ولما عرفوا حقيقة الأمر وجوا حيناً ، وأفاقوا من وجومهم فريقيين : فريق زار معابد الصحراء زيارة عابرة لم تُذكِر في نفسه ناراً بل أخذت ما أضاء له أساتذته الأولون في معبد الصحراء هذا ، لذلك آثر أن ينحونحو من رآه في المعبد يقوم بالأمر ، وقد أسبغ عليه سلوكه هدامسحة فلسفية استمد منها بعض ما يدافع به عن نفسه أمام إخوانه . واستمر يصعد في سلم المادة وهو آمن مطمئن يفسر انتقاد إخوانه حسداً ، ويرى تأنيب ضميره رجعية ، وإذا هو وحش كتلك الوحوش التي سمعت أصواتها ، وارتفع صوته يقوى أصواتها فازدادت غلظة ونكراً . وأما الفريق الآخر فقد آثر الانزواء في المعبد بعيداً يخفت من صلاته ويُدارى من تسييحه وقد انصرف عن كل أمر في المعبد ، لا يكاد يدري مما يدور فيه شيئاً ، وهو غارق في الداء الله أن تنجلى المحنة وأن تعود للمعبد حياته الأولى . ولما طالت بهذا الفريق الأعوام

قصة معبد

نبت منه من ثبت ، وتغير منه من تغير ، بل فر منه من المعبد من فر . وهكذا فقد المعبد الروح الذي يجذب عليه ، وأصبحت عقول سدنته وفلوبهم خارجة عنه وإن ظلت أجسامهم فيه . ولم أطق العيش معهم ، فخرجت إلى هذه الصحراء أجوبها من جديد ، وعدت إليه بعد أعوام لما تراجى إلى سمعى من أن رئيسهم القديم عاد إليهم . ولكم تأملت عندما وقع بصرى على المعبد بعد أن تركته طوال هذه الأعوام ! إن القبة الزرقاء أصبحت رمادية بما تراكم عليها من تراب . إن الجدران اللامعة الملساء قد تآكلت ، وتحفرت ، كأنما نخر فيها السوس . إن الأرض البيضاء الناصعة قد اسودت من أقدام الوافدين الذين هان عليهم أمر معبد ، هافى على سدنته من قبل . إن الهواء الطلق الجميل الذى كان يمر بالمعبد فى جلال الحرية وتمولها أصبح يدخله من خلل قضبان كأنما هى أنابيب لا تطلقه إلا بمقدار . ورحت إلى صديقتى أرى ما فعلت به المحنة فإذا هى قد تركت فيه آثارها . لقد بلا فيها ما لا يمكن لإنسان أن يبيلوه ليلظل إيمانه كما هو وإخلاصه كما كان . نعم إن إخلاصه لم يظماً . إنه ما كاد يظاً بأقدامه أرض المعبد ، ويسمع أصوات بعض المخلصين من صحبه حتى سى أو تناسى ما كان من أمر السدنة طوال هذه الأعوام . وبدأت حرارته تنير الميكان ، وبدأ السدنة يلتفون من حوله ، وبدأ ترتيلهم خافتاً ولكنه كان صافياً ، وإذا الاطيار تعود فرادى لتحلق حول القبة الزرقاء تتلقى الأنغام فتردها خجلة من تردادها الرفيع ، ثم متحمسة شيئاً فشيئاً حتى ينفى صوتها فى عمق أصوات السدنة المخلصين . ودخلت المعبد من القبة الزرقاء تريد أن تقيم فيه من جديد ، ولكن صدها مارأت . إن العناكب متراكمة على جدرانه ، وإن وجوه سدنته ساهمة ، وعيونهم زائفة ، أكثرها عالق بالأرض يحسب ويزن ، ولا يتطلع إلى السماء ليحلم مطمئناً .

وسار الزمن بالمعبد فى حالته الجديدة خطوات ، تحسبونها أشهراً أو سنوات ، وإذا الرئيس نفسه قد يئس من أمر المعبد . لقد كان الفساد فيه أشمل من أن يوحى بأمل فى إصلاح . إن جهاد الإصلاح أعسر من جهاد الإنشاء ، ومقاومة أهل المعبد أنفسهم أعسر وأشق من مقاومة السلطان . إن هؤلاء الغبراء الذين ظلوا فى المعبد وأصبح الأمر لهم إلى حد بعيد كان من الصعب إغفالهم ، ومن الأصعب التعاون معهم . ولم يكن الرئيس قوى الثقة بأبنائه الشباب ، فقد أظلم

نظرته إليهم ما بلاه في كبارهم ، فظلمهم وظلم نفسه بل ظلم المعبد فيهم . ولم تكن هذه القلة المخلصة الصافية من شباب أبنائه بكافية عدداً لتعين على إصلاح جبار كالذى تتطلبه الحال . وهى قد ألفت العزلة والحذر من المشاركة فى أمر ، فلما جاء الرئيس كانت هى أيضاً ضعفة الأمل فى الإصلاح أو عودة الحال . وحاول الرئيس ما حاول ثم مل وسئم ، وظلت هذه القلة عاكفة على نفسها لم تسأم ولم تياس كل اليأس . واتصل اليأس بالمتفائلين منهم ، فغلب ياسهم الحار تفاؤ لهم الخجل الفاتر . ولم تعد للرئيس حياة فى مثل هذا الجو ففر يأساً إلى المدينة ، يشق لحياته طريقاً آخر ، ويرسم لنفسه غايات جديدة ، لست أدرى من أمرها شيئاً : أتتصل آخر الأمر بالمعبد أم هى قد قطعت كل ما بينهما من أسباب .

إن أعمار الرجال يا بنتى لقصيرة ، وإن قصرها وجدته خليق أن يشع فى النفس معانى وتقديرات تقلب وجهة النظر إلى الحياة كلها . فإذا ما تقدمت هذه الأعمار وأحس أصحابها لأول مرة إحساساً قوياً أنها ستنتهى بعد حين ، وإن هذا الحين ليس طويلاً كما كانوا يحسونه فى الشباب ، أشع هذا الإحساس فى نفوسهم من الأحاسيس والمشاعر ما هو كفيفيل بأن يغير مجرى الحياة . ولكن ما لنا وللرئيس ! لقد هجر المعبد وهجره معه الأمل فى عودة الحال سيرتها الأولى . وهكذا يا بنتى ظلت أمور المعبد تسير من فساد إلى فساد ، ومن يأس إلى

يأس ، حتى نصبوا عليهم أخيراً شرهم خلقاً وأبلدهم حساً ، وأضيقهم أفقاً . رجلا لا يدرى من أمور الدنيا إلا ما يفيدته وينفعه نفعاً مادياً . إنه كبعض حيوان الصحراء الذى لا يفيق من نومه إلا على خطر يهدد حياته ، وإذا هذه الغفلة الطويلة والنوم العميق يستحيلان إلى يقظة وذكاء لا قبل لهذا الحيوان بهما . فإذا ما زال الخطر عاد يغط فى نومه وينعم بغبائه من جديد . ولا تسألنى عما أفسد فى نفوس أهل المعبد وأموره ؛ فكما أن الروح السامى يرفع من حوله إلى عليين كذلك ينزل الروح الشرير بمن حوله من ضعاف النفوس إلى أسفل سافلين ووصلت الحال أخيراً إلى ما قد سمعت من صوت ، وما رأيت من مناظر .

قلت : سيدى ولماذا ولوا عليهم شرهم ؟ قال : إنه أمر السلطان . لقد كان أهل المدينة يرسلون خيراتهم إلى أهل هذا المعبد وهم يرونها قرباناً لأهله وتقرباً إلى الله وسدنته ، وكثيراً ما أسفوا على أنها ليست أكثر مما يرسلون بالفعل . ولكنهم اليوم ، بفضل سوء الحال عندهم وفى المعبد نفسه ، أصبحوا يحسون أنهم يدفعون

إلى أهله مالا يستحقون ويمنون عليهم بما ليس لهم فيه حق . وسدنة المعبد لا يهمهم من هذا شيء . إنهم ساعون دائماً لملء بطونهم حتى يغطوا في نومهم ، وتضخم أصواتهم إذا ما أفقوا . وهم يرون في ضخامتها جلالاً ، وفي نكرها إشعاراً بعظمتهم ، وهذه أصواتهم تملو من جديد ، إنصتى إليها .

قلت : سيدى ولكن أليس عندك أنت أمل في عودة الحال ؟ قال : إني لأعرف إلا ماضياً وحاضراً ، أما المستقبل فلا يكشف لي عنه إلا سدنة مخلصون ، وقد مات هؤلاء من دنياى . قلت : ولكن تلك القلة من شبابه ألا تصحو يوماً ؟ قال : من يدرى ! . . نعم من يدرى !

ثم عاد يداعب رماله بعوده من جديد . وخفت أن يصمت فقلت : ولكن ليس هناك ما يمكن أن يعمل ؟ ولكنه لم يجب . ولو قد أجاب لضاع صوته في تلك الصيحة المنكرة التي سدت الآفاق من سدنة المعبد ، تثير في النفس خوفاً واشمئزازاً بعيدين كل البعد عن الإجلال أو الإعظام . قلت : سيدى ! ولكن الشيخ ظل كما هو لا يتحرك . وجمأة هبت الريح قوية أول الأمر ثم عاتية قاسية حتى رفعت كثيراً من رمال الصحراء إلى آفاق السماء ، فأقلت عيني حتى لا تعميها ذرات التراب ، فإذا الخوف يبلغ منى مبلغاً عظيماً ؛ فهذه أصوات منكرة وسط الظلام ، وتلك رياح عاتية تكاد تقتلعنى من الأرض . وصحت في خوفى : سيدى أين أنت ؟ ولكنى لم أسمع لنفسى صوتاً . وازدادت العاصفة قوة ، فإذا بي أندفع إلى حيث لا أدرى ، أعدو كأنما الريح هى التي تحملنى . وجمأة وجدت نفسى على أبواب المدينة وقد كاد النهار الطويل أن ينتهى . وعدت إلى بيتى متعبة ، ومنظر المعبد وشيخه وحديثهما ، بل الصوت المنكر ، ملء نفسى وخيالى . وما كاد الصباح يلوح هادئاً النسيم ، كأنما الطبيعة تستريح من جهاد عاصفة أمس ، حتى أسرعرت إلى الصحراء أبحث عن المعبد وشيخه فلم أجد لها أثراً . وطال بحثى وتجوالى حتى كلت قدماى ، وعاودت البحث مساءً وصباحاً أياماً وأياماً بلغت أشهراً وأعواماً حتى يئست من أمرها . ترى ابتلغتهما عاصفة الصحراء أم حملتهما إلى صحراء أخرى من صحارى الأرض . ولما بلغت حيرتى أشدها شككت فى أمر نفسى ، فسألتهما : أراتهما فعلا واستمعت إلى الشيخ حقاً ؟ قالت : أما ذلك فليس فى أمره شك . قلت : ولكن أين ذهبا . قالت : أما المعبد فلا يمكن أن يكون قد رفع على متن الريح . وأما الشيخ فقد

كان أكثر تعلقاً بالأرض ولصوقها من أحجار المبعد على ضخامتها . قلت : إذن أين هما ؟ قالت : في الصحراء . قلت : وما لي لا أراها ؟ قالت : إنها صحراء صامتة خرساء قاحلة جرداء ، ولكن عليها أزخر حياة وملؤها أشهى حديث ، ولا يحس حياتها ولا يسمع حديثها إلا من أحبها ، ونسى نفسه فيها . قلت : وهل أحب الصحراء مني أحد ؟ قالت : أنسيت العاصفة وما أثارته فيك من خوف واضطراب ! مما فررت ؟ وعلام حرصت ؟ أعلى الصحراء ؟ قلت : لقد زالت العاصفة . قالت ولكن آثارها لا تزال . وهل يزول في الوجود شيء .

سهر القلمارى